الكامِـل
للمبرِّد

أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ، من بنى ثُمالة ، فهو زدى يمانى عربى ، وشهرته « المبرّد » ، لقب أجهد العلماء أنفسهم كثيراً وطويلا بحثًا عن تعليل له ، وربطه بحادث كان مصدره .

كان **المبرد** نفسه أول من حاول أن يجد للقبه تفسيراً ، فذكر أن صاحب الشرطة فى المدينة طلبه يوماً للمنادمة والمذاكرة ، فكره الذهاب إليه ، ولاذ بأستاذه **أبى حاتم السجستانى** ، فجاء رسول الوالى يطلبه ، فقال أبو حاتم للمبرد : ادخل فى غلاف هذه المزمّلة الفارغة ، فدخلت فيه وغطى رأسها ، ثم خرج إلى الرسول وقال له : ليس عندى . فقال : أُخبرتُ أنه دخل إليك . فقال : ادخل الدار وفتشها فدخل ، وطاف كل موضع فى الدار ولم يفطن لغلاف المزملة ، ثم خرج فجعل أبو حاتم يصفّق ، وينادى : « على المزمّلة المبرد ، وتسامع الناس بذلك فلهجوا به » . أورد هذه القصة **أبو الفرج الجوزى** فى كتابه « الألقاب » ولا أكاد أطمئن إليها ، لأنها تعنى أن اللقب جاءه فى سن متقدمة ، عالما له شهرة ، وسميراً ينادم ، والأخذ بها يسقط كل التفسيرات الأخرى ، وقد جاءت على التأكيد لأن الرواة وجدوا أنفسهم أمام لقب لا يعرفون له مصدراً ، فمال كلٌّ إلى ما سمع ، أو اعتقد أنه الأصل من الروايات .

وأورد **ياقوت** فى « معجم الأدباء » أن **المازنى** لما صنف كتابه « الألف واللام » سأل أبا العباس عن دقيقه وعويصه ، فأجابه بأحسن جواب ، فقال له : « قم فأنت المبرّد ، أى المثبت للحق ، وحرّفه الكوفيون ففتحوا الراء » وهذه الرواية لا تعنى ، عند النظر المتمعّن ، أن المازنى هو أول من أطلق اللقب على تلميذه ، وتفسير الكلمة ، فيما أرى ، من صنع الرواة ، وكلمة « أنت المبرد » ، إنما تعنى أنت خليق بما عُرِف فيك وما هو ذائع عنك ، من علم وذكاء ، وتوحى فى الوقت

نفسه بأن أبا العباس شهر بها فى وقت سابق ، ويأخذ السيوطى فى كتابه « المزهر » بنفس الرواية ، ويضيف إليها أن الكوفيين حرفوه إلى المبرَّد تهكمًا به .

وابن عبد ربه ، صاحب « العقد الفريد » ، يعلل فتح الراء فى كلمة « المبرد » بأن أبا العباس ألَّف كتاباً أسماه « الروضة » ، قصد فيه إلى أخبار الشعراء المحدثين ، على أيامه ، فلم يختر لكل شاعر إلا أبرد ما وجد له ، حتى انتهى إلى الحسن بن هانى (أبى نواس) فاستخرج له من البرد أبياتًا ما سمعناها ، ولا رويناها ، ولا ندرى من أين وقع عليها ، وجل أشعاره فى الخمريات بديعة لا نظير لها ، فخطر بها كلها ، وتخطَّاها إلى التى جانسته فى برده ، فما أحسبه لحقه هذا الاسم (أى المبرد) إلا لبرده ، وقد تخير لأبى العتاهية أشعاراً تقتل من بردها . ورواية ابن عبد ربه يبدو فيها التحامل واضحاً ، فقد كان المبرد يختار شعر الآخرين فى ضوء ثقافته وفهمه وتذوقه ، وهى عوامل قد تدفعه إلى اختيار ما لا يعجب ابن عبد ربه الشاعر الغرد الطروب ، لكنها لا تبرر ما اتهمه به .

واختار الوزير الأندلسى محمد بن هشام المصحفى ، المتوفى عام ٤٧١ هـ = ١٠٨٨ م ، أن يضبطها بفتح الراء ، وقال : « لُقب بالمبرد لحسن وجهه ، يقال ، رجل مبرَّد ، ومقسم ومحسَّن ، إذا كان حسن الوجه » . ولم أجد فى المعاجم التى رجعت إليها ، المعانى التى أشار إليها الوزير الأندلسى لكلمة مبرَّد ولا أدرى على أى مصدر اعتمد .

لا أرتضى أيًّا من هذه التفسيرات ، وفيما يبدو لى اللقب أقدم منها جميعًا ، ذلك أن الألقاب التى تلحق بالمرء ، وتعلو على النسيان ، تطلق عليه عادة فى سن طرية ، أو فتيا إثر حادث جلل ، وهو ما نفتقده فيما بين أيدينا من محاولات لربط اللقب بحادث كان مصدراً له .

كان هذا اللقب مثار فكاهات كثيرة بين معاصرى المبرد ، تقبلها أحياناً وضاق بها أخرى ، فقد لقى بَرْدُ الخيار الكاتب أبا العباس المبرد ، على الجسر فى يوم بارد ، فقال له : أنت المبرد ، وأنا برد الخيار واليوم بارد ، اعبر بنا لئلا يصيب الناسَ الفالجُ . وكان المبرد أشد ما يكون ضيقاً بلقبه إذا نُطق مفتوح الراء فكان يقول : « برَّد الله من بردنى ! » .

وُلد المبرد في البصرة ، يوم الاثنين غداة عيد الأضحى ٢١٠ هـ = ٨٢٦ م ، ودرس على جلّة من علماء عصره ، قرأ كتاب سيبويه في النحو على الجرمي ، أبو عمر صالح بن إسحاق ، وختمه على المازني ، أبو عثمان بكر بن محمد ، وتلقى عن أبي حاتم السجستاني ، وقرأ أشعار جرير على عمارة بن عقل ، وكان يعيش في سهول البصرة ، ويعد حجة ثبتاً في أمور اللغة ، وقد أظهر المبرد نبوغاً مبكراً ، ونال شهرة واسعة ، وحدث يومًا أن **الخليفة المتوكل** قرأ بحضرة **الفتح ابن خاقان** قوله تعالى : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » بفتح همزة أنها ، فقال له الفتح : يا سيدى ، إنها بكسر الهمزة ، فتبايعا على عشرة آلاف درهم ، أو دينار ، وتحاكما إلى **يزيد بن محمد المهلبي** ، وكان صديقً للمبرد ، فقال : والله لا أعرف الفرق ، وما رأيت أعجب من أن يكون باب أمير المؤمنين يخلو من عالم متقدم ، ولا أعرف أحداً يتقدم فتى بالبصرة يعرف بالمبرد . فأمر المتوكل فجئ به إلى سُرّ من رأى (= سامراء) سنة ٢٤٦ هـ = ٨٦٠ م ، فحضر مجلس الخليفة ونال عطاياه . فما قُتل المتوكل بعد ذلك بعام ، رحل المبرد إلى بغداد واستقر فيها .

وفي **بغداد** ، غريبًا فقيراً مجهولا . كان عليه أن يشق لنفسه ، بجهد بالغ ، مكاناً في دنيا العلم والناس ، وحين اختل أمره وأدركته الحاجة توخى شهود صلاة الجمعة ، فلما قُضيت الصلاة ، أقبل على بعض من حضره ، وسأله أن يفاتحه السؤال ليتسبب له في القول ، فلم يكن عندهم من عِلْم ، حينئذ رفع صوته ، وطفق يفسر ، يوهِم بذلك أنه قد سُئل ، فصارت حوله حلقة عظيمة ، فتشوف **ثعلب** أحمد بن يحيى ، إلى الحلقة ، وكان كثيراً ما يرد الجامع قوم خراسانيون من ذوى النظر ، فيتكلمون ويجتمع الناس حولهم ، فإذا أبصرهم ثعلب أرسل من تلاميذه من يفاتشهم ، فإذا انقطعو عن الجواب انفض الناس عنهم .

فلما نظر **ثعلب** إلى منْ حوْل أبي العباس **المبرد** أمر **الزجاج وابن الخياط** ، من تلاميذه ، بالنهوض إليه ، وقال لهما : فُضّا حلْقة هذا الرجل ، فنهض معهما من حضر من أصحابه ، فلما صاروا بين يديه قال له الزجاج : أتأذن – أعزك الله – في المفاتشة ؟ فقال : سلْ عمَّا أحببت ، فسأله عن مسألة فأجابه فيها بجواب أقنعه فنظر الزجاج في وجوه أصحابه متعجبً من تجويد أبي العباس للجواب ، ثم سأله

عن أخرى ، وأخرى ، حتى بلغت مسائله أربع عشرة ، وهو يجيب عن كل واحدة منها بما فعله فى المسألة الأولى ، فلما رأى ذلك الزجاج قال لأصحابه : عودوا إلى الشيخ فلست مفارقًا هذا الرجل ، ولابد لى من ملازمته ، والأخذ عنه ، فعاتبه أصحابه وقالوا له : تأخذ من مجهول لا تعرف اسمه وتدع من قد شُهِرَ علمه ، وانتشر فى الآفاق ذكره ؟ « فقال لهم لست أقول بالذكر والخمول . ولكنى أقول بالعلم والنصر » . وقد دامت الخصومة بين العالمين الجليلين زمنًا طويلا وأصبح لكل منهما أنصار وأعوان ، فانتصر أحمد بن فارس ، وأبو بكر الأنبارى لثعلب ، وألف كل منهما كتابا . ولزم ابن دَرَستويه والزجاج جانب المبرِّد ، وردّ كل منهم على ثعلب وأعوانه بكتاب .

فلما اطمأن الناس إلى علمه بدأ يعلم بأجر ، ويأجر محدّد ، يتناسب مع مكانته ، لا يقول كلمة واحدة لم يقع عليها اتفاق وشرط . وتركت أيام الفقر الأولى أثرها فى نفسه ، فكان ، كعدد من علماء عصره وما بعده ، بخيلا ممسكا حتى بعد أن أقبلت عليه الدنيا وعاش فى سعة ، وأثر عنه « ما وزنتُ شيئًا بالدرهم إلا ورجح الدرهم فى نفسى » .

ومع ذلك كان حسن المحاضرة ، مليح النادرة ، خفيف الروح ، كثير النوادر ، صاحب ظرْف ولباقة ، غزير المادة ، كثير الحفظ ، حسن الخط ، انتهى إليه العلم بالعربية بعد طبقة الجرمى والمازنى ، وكان على صلة بالجاحظ استمرت حتى آخر أيام حياته . ويُنسَب إليه شعر قليل موزع فى مصادر الأدب له خصائص شعر العلماء ، من نظم ورتابة ، أكثره فى المدح والغزل والإخوانيات ، وقد تتلمذ عليه جلة من العلماء ، من بينهم الزجاج ، والأخفش علىّ بن سليمان ، وأبو بكر بن السراج ، ومحمد بن جعفر الصيدلانى ، وأصهر إلى أستاذه فتزوج ابنته . وكانت إمامته فى النحو واللغة مُعترفًا بها ومقدرّة ، يقول عنه ابن جنى : « بُعد جبلاً فى العلم ، وإليه أفضَت مقالات أصحابنا ، وهو الذى نقلها وقرَّرها وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها » . ومدحه من الشعراء البحترى ، وخصه ابن الرومى بقصيدة طويلة قاربت أبياتها المائة ومطلعها :

طرقتْ سماءُ والركب هجودُ والمطايا جُنَّحُ الأذوادِ قُود
طرقتنا . فأنالت نائلاً شكره، لوكان فى النية الجحود

وقلما ظفر نحوى بقصيدة مدح طويلة ، من شاعر كبير معاصر له[١] ، وتوفى المبرد فى بغداد ، فى شوال عام ٢٨٥ هـ = ٩٩٨ م ، على أرجح الروايات ، أيام خلافة المعتضد ، بعد أيام حافلة بالعلم والدرس والتأليف .

* * *

كتب المبرّد فيما كان يشغل علماء عصره ، من نحو ولغة واشتقاق وشعر ، يختاره أو يشرحه أو يعلق عليه . وبعض مؤلفاته لا نعرف منه غير عنوان الكتاب ، جاء عرضاً فى مصادر الأدب ، فالبغدادى فى « خزانة الأدب » يشير إلى كتاب له ، اسمه « الاعتنان » وموضوعه بيان أسباب التهاجى بين جرير والفرزدق ، وذكر الصولىّ فى أخبار « أبى تمام » أنه قرأ على المبرّد كتابه « الفتن والمحن » ، وعرض المبرّد نفسه لقصة جذيمة الأبرش الأزدى ، والزباء التى قتلته ، وعقّب على الحديث : « وله قصص تطول ، وقد شرحنا ذلك فى كتاب « الاختيار » .

وأورد ابن النديم فى « فهرسته » وياقوت فى « معجمه » ، أسماء كتب أخرى لا نعرف عنها شيئاً غير عناوينها ، وربما كانت رسائل صغيرة ، وجلها فى النحو والصرف والعروض وشرح الشواهد وإعراب القرآن ، وبعضها « كأدب الجليس » و « الحث على الأدب والصدق » يوحى عنوانها بأنها طرائف وحكايات ذات صبغة أخلاقية .

ولدينا ثلاث مخطوطات لم تنشر بعد : « المذكر والمؤنث » ويوجد مخطوطاً فى المكتبة الظاهرية بدمشق . و « التعازى والمراثى » ومخطوطته فى مكتبة ديرالإسكوريال ، قريباً من مدريد بإسبانيا . ثم « الروضة » وذكر السخاوى فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » ، أن جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى ، المتوفى عام ٣٢٣ هـ = ٩٣٤ م ، له كتاب فى الإخبار سماه

---

(١) توجد القصيدة كاملة فى مخطوطة ديوان ابن الرومى بدار الكتب المصرية الورقة ٩١ و ٩٢ ، وأورد البارودى فى مختاراته طرفًا منها جـ ١ ص ٣٤٥ و ٣٤٦ ونشرها كاملة المرحوم محمد عبد الخالق عضيمة فى كتابه : المبرد ، حياته وآثاره ، ص ٤٠ وما بعدها وهى دراسة نشرها كمقدمة لتحقيقه كتاب « المقتضب » للمبرد ، القاهرة ١٣٨٥ هـ .

« الباهر » ، عارض به المبرّد فى كتابه « الروضة » ، وقد عثر الأستاذ عبد العزيز الميمنى على مخطوطته أخيراً .

أما مؤلفاته المنشورة فهى : « الفاضل والمفضول » و « ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد » و « نسب عدنان وقحطان[١] » . و « أعجاز أبيات[٢] » و « شرح لامية العرب[٣] » و « المقتضب[٤] » ورسالة أورد فيها الحجج التى تثبت أفضلية الشعر[٥] ثم كتاب « الكامل » وهو موضوع دراستنا .

كان الكامل آخر ما ألف المبرّد من كبريات كتبه ، فكان خيرها جلال قدر وعميم نفع ، وتمثلت فيه بوفاء وصدق ثقافة المبرد بكل جوانبها ، لغوية أو نحوية أو أدبية ، أوجز القاضى أبو الفرج المعافا بن زكريا بن يحيى النهروانى ، المتوفى عام ٣٩٠ هـ = ٩٢١ م ، رأيه فى الكتاب ، فقال فى مقدمة مؤلفه « الجليس الصالح الكافى ، والأنيس الناصح الشافى[٦] » : « وعمل أبو العباس محمد بن يزيد النحوى كتابه الذى سمّاه « الكامل » وضمنه أخباراً وقصصاً لا إسناد لكثير منها ، أودعه من اشتقاق اللغة وشرحها وبيان أسرارها وفقهها مايأتى به مثله ، لسعة علمه ، وقوّة فهمه ، ولطيف فكرته ، وصفاء قريحته ، ومن جلىّ النحو والإعراب وغامضهما ما يقلّ وجود من يسدّ فيه مسدّه » .

---

(١) هذه الكتب الثلاثة نشرت بتحقيق الأستاذ الميمنى ، الأول منها نشرته دار الكتب المصرية سنة ١٣٧٥ هـ ١٠٥٦ والثانى نشرته المطبعة السلفية ، لصاحبها محب الدين الخطيب ، عام ١٣٥٠ هـ = ١٩٣٢ م والثالث نشرته « لجنة التأليف والترجمة والنشر » سنة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٦ م .

(٢) نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ضمن « نوادر المخطوطات » عام ١٣٧١ هـ = ١٩٥١ م . بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

(٣) طبعت بمطبعة « الجوائب » فى الآستانة ، مع كتاب « أعجب العجب » للزمخشرى .

(٤) قام بتحقيقه ، مع مقدمة درس فيها حياة المؤلف المرحوم محمد عبد الخالق عضيمة ، ونشر الكتاب فى إخراج جيد : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامى ، القاهرة ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ م .

(٥) نشرها المستشرق غوستاف فون جرنباوم Gustave F. von Grunebaum وهو نمساوى الأصل ، ويعمل الآن رئيسا لقسم دراسات الشرق الأدنى فى جامعة كاليفورنيا ، بالولايات المتحدة .

(٦) لا يزال هذا الكتاب مخطوطًا لم ينشر بعد ، وتوجد مخطوطته كاملة بمكتبة أحمد الثالث باستنبول ، ومخطوطة ثانية ناقصة ، تنتهى بالمجلس الحادى والأربعين ، توجد بمكتبة داماد إبراهيم بنفس المدينة ، ويوجد الجزء الأول منه ، وينتهى إلى آخر المجلس الحادى والعشرين ، فى دار الكتب المصرية .

والمخطوطة الوحيدة التى أعرفها لكتاب « الكامل » توجد فى مكتبة ديرالإسكوريال ويرجع تاريخها إلى عام ٥١٢ هـ = ١١١٨ م ، كتبها لنفسه على بن عبد الله بن خلف بن محمد بن النعمة ، بخط أندلسى ، وجاءت فى ١٧٨ ورقة ، ومسطرتها ٢٧ سطراً ، وإسناد النسخ المطبوعة التى بين أيدينا أندلسى ، وقد أورد لنا ابن خير فى « فهرسته » عما رواه عن شيوخه ، إسنادين متصلين لرواية الكامل ، الأول منهما يبدأ بابن خير نفسه يقول : « حدثنى به أبو محمد بن عتاب ، عن أبى عمر بن عبد البر ، عن أبى عثمان سعيد بن عثمان النحوى ، عن أبى عثمان سعيد بن جابر » . والثانى يبدأ بأبى محمد بن عتاب يقول : « وحدثنى به أبى رحمه الله ، قال حدثنا به أبو مطرف عبد الرحمن بن مروان القنازعى ، عن أبى بكر محمد بن عبد العزيز بن القوطية ، عن أبى عثمان سعيد بن جابر » ، وكان أبو عثمان هذا (ت ٣٢٧ هـ = ٩٣٨ م) تلقى رواية « الكامل » من أبى الحسن على بن سليمان ، الملقب بالأخفش الصغير ، تلميذ المبرّد ، ومحرّر الكتاب .

* * *

أوجز المبرّد فى مقدمة الكتاب مادتَّه ، والمنهج الذى سوف يسير عليه ، يقول : « هذا كتاب ألّفناه ، يجمع ضروبا من الآداب ، ما بين كلام منور ، وشعر مرصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة » .

« والنيَّة أن نفسر كل ما وقع فى هذا الكتاب من كلام غريب ، أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً وافيًا ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيًا ، وعن أن يرجع إلى أحد فى تفسيره مستغنيًا » .

وعبر الكتاب تحدث فى إشارات مختصرة عن الشعراء المحدَثين ، أو المولَّدين بلغته ، ويعنى بهم ، أولئك الذين عاصروه من شعراء الدولة العباسية فخصهم ببباب قدم له بقوله : « هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين ، حكيمة مستحسنة ، يحتاج إليها للتمثل ، لأنها أشكل بالدهر ، ويستعار من ألفاظها فى المخاطبات ، والخطب والكتب » وأوضح فى مكان آخر : « وليس لقدم العهد يُفضّل القائل ،

ولا لحدثان عهده يُهتضم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحق » . ويعلق على شعر ابن مُناذر بقوله : « كان رجلا عالمًا شاعراً مُفلقًا وخطيباً مِصْقعًا ، وفى دهر قريب ، بله فى شدة شعره كلام العرب بروايته وأدبه ، وحلاوة كلام المحدثين بعصره ومشاهدته » ، وبحديثه عن القدامى والمحدثين مهد القول لابن قتيبة ؛ لكى يزيد الأمر تفصيلا ووضوحاً فى كتابه « الشعر والشعراء » .

يحمل كتاب « الكامل » **طابع العصر الذى أُلّف فيه** ، فهو يميل إلى **الاستطراد** ، وينتقل من قضية إلى أخرى لأدنى ملابسة ، وتجاوز دَوْرُه فى النصوص الأدبية الجمع والاختيار ، إلى الشرح اللغوى ، والتصويب النحوى ، وتتبع دلالات اللفظ الواحد فى وجوهها المختلفة ، عند جمهرة الأدباء والشعراء .

وكان **الأخفش الصغير** ، راوية الكتاب ، يمدّ عقله داخل كتاب شيخه ، فيشرح من الكلمات اللغوية ما يراه صعبا ولم يفسره المؤلف ، أو يعرف بمن يراه نادراً وغريبًا من الأعلام ، أو يصحح له روايته ، أو يزيد عليها ، ينسب التصحيح إلى نفسه أو يتكئ فيه على ثعلب خصم المبرّد العنيد ، وهو يشير إلى اسمه كاملا أحيانًا فيذكر : « قال أبو الحسن الأخفش ... أو أبو الحسن .. » ويكتفى منه فحسب بحرف الشين أحيانًا أخرى : « قال ش » ، ويهمل اسم المصحّح قليلا ، فلا نعرف من هو ، وأظن أنه الأخفش نفسه ، ترجيحاً لا يبلغ اليقين .

والمبرّد عربى أزدى يمانى ، والكامل يمثل هذه المعانى تمثيلا صحيحًا ، فما فيه ثقافة عربية خالصة ، فلا تجد عنده ما تجده عند الجاحظ من ألوان الثقافات الأجنبية أيًّا كان مصدرها ، والمرة الوحيدة التى خرج فيها عن مجال تخصصه ، أخطأ القول ، وجانبه الصواب ، فقد أورد أبياتًا للشاعر إسماعيل بن القاسم ، يرثى بها شخصاً لا يشير إليه ، وختمها بالبيت :

وكانت فى حياتك لِى عِظاتٌ وأنتَ اليومَ أوعظُ منك حيًّا

فعقب عليها : « وكان إسماعيل بن القاسم لا يكادُ يُخلى شعره مما تقدّم من الأخبار والآثار ، فينظم ذلك الكلام المشهور ، ويتناوله أقرب متناول ، ويسرقه أخفى سرقة ، فقوله : وأنت اليوم أوعظ منك حيًّا ، إنما أخذه من قول الموبذ لقباذ الملك حيث مات ، فإنه قال فى ذلك الوقت ، كان الملك أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس » . وهو خطأ واضح ، لأن هذه الجملة قيلت أمام تابوت

الإسكندر الأكبر غداة موته ، وأوردها الجاحظ فى « البيان والتبيين » صحيحة النسبة ، وليس لقباذ ملك فارس من عمل جليل ، يحمد عليه ، أو يورثه ذكراً . وخصّ أذواد اليمن فى الإسلام بباب خاص استعرض فيه تاريخهم ، وحديثه عن قومه من اليمن ، عبر الكتاب كله ، يشوبه العطف عليهم ، دون أن يفقد جادة الحق والاعتدال .

وهو **مصدر أصيل لما أصاب الإسلام من فتن عاتية** ، منذ سقط الخليفة عثمان شهيداً ، وتأجج الخلاف بين على ومعاوية ، وموسوعة قيمة للأدب الذى عبرّ عن هذا الصراع ، من خطب ورسائل ومنافرات وهجاء ، وقصص وشعر وأنساب ، وللرجال الذين شاركوا فى هذه الأحداث ، **وخص الخوارج من بينهم بحديث مفصّل طويل** ، فى باب مستقل وعبر الأبواب الأخرى ، وأطنب فى ذكر نشأتهم وأخبارهم وفرقهم ، وخطبائهم وقوادهم وأبطالهم ، على كثرتهم ونفاذ بصيرتهم ، وتوطين أنفسهم على الموت . وأفسح لأدبهم من مؤلفه مكاناً واسعاً ، وتحسُّ وأنت تقرأ روايته لأخبارهم أنه يشعر نحوهم بشىء من العطف ، حتى أن ابن أبى الحديد ، وهو شيعى ، فى شرحه لكتاب « نهج البلاغة » للإمام على ، اتهمه بالميل إلى رأى الخوارج ، لإطنابه فى سيرتهم ، واعتداله فى الحكم عليهم . والحق أن مَيل المبرّد إليهم كان إنسانيا وأدبيًّا أكثر منه سياسيًّا ، فللخوارج من ألوان البطولة الخارقة ، والمقاومة المؤمنة العنيدة ما يهز الناس جميعًا فى عصرهم وبعد عصرهم ، وفى أدبهم من الصدق والقوة والجمال ما يثير إعجاب المبرّد ، وغير المبرد ، وكان أبو العباس فى حديثه عنهم مستجيباً لكلا العاملين ، فأورد من تاريخهم ما يجعل من « الكامل » أصحّ مرجع لكتابته ، وسجّل من نصوصهم الشىء الكثير ، فهو أوفى مصدر لدراسة أدبهم . ومعتذراً عن نفسه ، عن حوله ، وضّح المبرّد وجهة نظره فيما يتصل بحديثه عنهم ، فشرح فى البدء منهجه : « ... وأخبار الخوارج كثيرة طويلة ، وليس كتابنا مفرداً لهم . لكنا نذكر من أمورهم ما فيه معنى وأدب ، أو شعر مستطرف ، أو كلام من خطبة معروفة مختارة » . ثم اعتذر فى نهاية الكلام عما أطال من حديثهم : « وهذا الكتاب لم نبتدئه لتتصل فيه أخبار الخوارج ، ولكن ربما اتصل شىء بشىء ، والحديث ذو شجون ، ويقترح

المقترح ما يفسخ به عزْم صاحب الكتاب ، ويصدّه عن سنته ، ويزيله عن طريقه »

وجريًا على هذا النهج ، التزم موقف الاعتدال من الخصومات السياسية العنيفة التي شهدها عصره بين الفئات المتصارعة ، فلم يشارك فيها عملا ، وبَعُدَ عن التحيّز لأحد مؤلفا ، وعفّ عن صغارها وآثامها ، فلم يضمن « الكامل » شيئا فى ذمّ على أو معاوية ، ولم يورد لنا من رسائلهما ما يتضمن هذا الذم ، وإذا أورد رسالة تضمنت من ذلك شيئاً أمسك عنه . أورد كتابًا وجهه معاوية إلى علىّ رضى الله عنه يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من معاوية بن صخر إلى على بن أبى طالب .

أما بعد ، فلعمرى لو بايعكَ القومُ الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان كنت كأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، ولكنك أغريتَ بعثمان المهاجرين وخذّلتَ عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف . وقد أبى أهل الشام إلا قتالك ، حتى تدفع إليهم قتلَةَ عثمان ، فإن فعلتَ كانت شورى بين المسلمين ، ولَعمْرى ما حجتُك علىّ كحجتّكَ على طلحة وَالزبير ، لأنهما بايعاك ولم أبايعك ، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة ، لأن أهل البصرة أطاعوكَ ولم يطعك أهل الشام ، وأما شرفك فى الإسلام ، وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموضعك من قريش ، فلست أدفعه . ثم كتب إليه فى آخر الكتاب بشعر كعب بن جُعَيْل ، وهو :

أرى لشامَ تكره مُلْكَ العراق ... وأهل العراقِ لهُمْ كارهينا
وكُلًّا لصاحبه مبغضًا ... يرى كلَّ ما كان من ذاك دينا
إذا ما رمونا رميناهم ... ودِنّاهم مثلِ ما يُقْرِضونا
فقالوا علىٌّ إمامٌ لنا ... فقلنا رضينا ابنَ هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا له ... فقلنا ألا لا نرى أن نَدينا
ومن دون ذلك خَرْطُ القَتَادِ ... وطَعنٌ وضربٌ يُقرُّ العيونا

وأتبع ذلك قوله : « وفى آخر هذا الشعر ذمّ لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أمسكنا عن ذكره » . والعجيب أن ابن أبى الحديد ، وهو شيعى ويتهم المبرد بالخارجية أورد هذا الشعر ، وهو :

وكلٌّ يُسَرُّ بما عنده ... يرى غثَّ ما فى يديه سمينا
وما فى علىّ لمستعتبٍ ... مقالٌ سوى ضمّه التحدثِينا
وإيثاره اليوم أهل الذنوبِ ... ورفع القصصِ عن القاتلينا
إذا سِيلَ عنه حذا شبهةً ... وغمَّى الجوابَ عن السائلينا
فليس بمراض ولا ساخط ... ولا فى النهاة ولا آمرينا
ولا هو ساء ولا سَرَّهُ ... ولابدّ من بعض ذا أن يكونَا

ثم أورد جواب على بن أبى طالب عن هذه الرسالة ، وصنع فيه ما صنع فى رسالة معاوية ، من حذف ما رآه غير لائق :

« بسم الله الرحمن الرحيم :

من على بن أبى طالب إلى معاوية بن صخر ، أما بعد ؛ فإنه أتانى منك كتاب امرئ ليس له بصر يهديه ، ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقده فاتّبعه ، زعمتَ أنَّك إنما أفسدَ عليك بيعتى خطيئتى فى عثمان ، وعمَرى ما كنت إلا رجلا من المهاجرين ، أوردتُ كما أوردوا ، وأصدرتُ كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلال ، ولا ليضربهم بالعمى . وبعدُ ، فما أنتَ وعثمانُ ، إنما أنت رجلٌ من بنى أمية ، وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه ، فإن زعمتَ أنك أقوى على ذلك فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكم القوم إلىّ . وأما تمييزك بينك وبين طلحة والزُّبير ، وأهل الشام وأهل البصرة ، فلعمرى ما الأمر فيما هناك إلا سواء ، لأنها بيعة شاملة لا يُستثنى فيها الخيارُ ، ولا يُسْتأنف فيها النظر . أما شرفى فى الإسلام ، وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموضعى من قريش ، فلعمْرى لو استطعت دفْعه لَدفَعْته » .

« ثم دعا النجاشى ، أحد بنى الحارث بن كعب ، فقال له : إنَّ ابن جُعَيْل شاعر أهل الشام ، وأنت شاعر أهل العراق ، فأجب الرجل ، فقال : يا أمير المؤمنين : أسمعنى قوله : قال : إذاً أسمعَكَ شعر شاعر ، فقال النجاشى يجيبه :

دعًا يا معاوى ما لن يكونا ... فقد حقق اللهُ ما تحذرونا
أتاكم علىٌّ بأهل العراق ... وأهل الحجاز فما تصنعونا

ويعقب على هذا بقوله : « وبعد هذا ما نمْسك عنه » ، وما أمسك عنه المبرّد

أبياتًا ، عدتها أحد عشر بيتًا ، فيها مدح لعلىّ وأنصاره ، وزهو بأهل الحجاز والعراق ، وردّ على معاوية وتابعيه ، ونجتزئ منها بالبيتين التاليين :

. . . . . .

فقــلْ للمضلّل مــن وائــل ومَن جعل الغث يوماً سمينا
جـعلتـم عليًّـا وأشيـاعـه نظير ابن هند أما تستحونا

. . . . . [1]

وإذا أردد الرسائل المتبادلة بين أمير المؤمنين **أبى جعفر** المنصور ، وبين **محمد بن عبد الله بن حسن العلوى** ، أورد ما يجوز ذكره ، وأمسك عن الباقى ، « فقد قيل : الرواية أحد الشاتمين » .

والكتاب معرض حافل بألوان من اللغة فى مختلف جوانبها ، من اشتقاق ونحو وصرف ودلالات ، مبثوثة خلال ما أحسن اختياره من نصوص ، فإذا عرض لتفسير لفظ تتبع مختلف دلالته ، يذكر قول الطِّرِمَّاح :

وأخْرجَ أمّهُ لسـواس سلْمَى لمعفـور الضـرا ضَـرِمَ الجنـين[2]

ويوضّح ما غمض من ألفاظه ، يقول : « وقوله ضرم الجنين يقول مشتعل . والجنين ما لم يظهر بعد ، ويقال للقبر جَنَن . والجنين الذى فى بطن أمه ، والمجنّ الترس ، لأنه يسترك ، والمجنون : المُغَطَّى العقل . ويُسمىَّ الجنُّ جنًا لاختفائهم . وتُسمىَّ الدروعُ الجُنَن لأنها تستر من كان فيها » .

وأكثر الأبيات الشعرية ، والحكم والأمثال التى أوردها ، أعرب ما هو غامض من جملها ، مستقصياً أوجه الإعراب المختلفة ، لمن يرضى من العلماء ، وما يرتضى من مذاهب النحاة . وما ارتآه هامًّا من قواعد النحو أو الصرف خصَّه بباب مستقل ، مثلا : « باب ما يجوز يَفْعُل فيما ماضيه فَعَل مفتوح العين » ، « باب اللام التى للاستغاثة والتى للإضافة » وباب « فَعَل » و « النسب إلى المضاف » .

---

(١) توجد الأبيات كاملة فى : سيد على المرصفى : رغبة الآمل فى كتاب الكامل جـ ٣ ص ٢١٥ ، ٢٢٦ .

(٢) الاخرج : الذى فى لونه سواد وبياض – سواس : شجر ينبت فى جبل سلمى – أمه : الشجرة التى هى أصله – المعفور : ما سقط من النار من الزند – الضرا : الضراء ، ما واراك من شجرة خاصة .

وهو يجرى على سَنَن المدرسة البصرية ، فينكر متشدّداً روايات النحو أو اللغة التى تخالف القياس العام ، ويرى « أن القياس المطرد لا تعترض عليه الرواية الضعيفة » ، حتى قال عنه ابن ولادّ : « هذا رجل يجعل كلامه فى النحو أصلا . وكلام العرب فرعًا ، فاستجاز أن يخطئها إذا تكلمت بفرع يخالف أصله » .

جاء المبرد وكتاب سيبويه فى النحو المرجع والأستاذ ، منه يؤخذ العلم والشاهد فدرَسه واحتفظ لنفسه بنسخة ثمينة منه ، كان يضنّ بها على من يريد نسخها ، وعُرف عنه أنه خير من يفسر الكتاب ويشرحه ، وإليه يُرْحل لسمعه ، لكن شخصيته لم تتضاءل أمام سيبويه ، فخالفه فى مسائل كثيرة ، رجع عن بعضها واعتذر منه بأنه « شىء كنا رأيناه فى أيام الحداثة ، فأما الآن فلا » ، وبقى على رأيه فى بعضها الآخر حتى آخر حياته . فأثار هذا عليه عدداً من العلماء ، فعلى بن حمزة ، فى كتابه « التنبيهات على أغاليط الرواة » يقول عنه : « لو تشاغل أبو العباس بُملَح الأشعار ، ونُتف الأخبار ، وما يعرفه من النحو لكان خيراً له من القطع على كلام العرب ، وأن يقول : « ليس كذا من كلامهم ، فلهذا رجال غيره ، وياليتهم أيضاً يسلمون » .

وأجاز لنفسه ، فى نصوص تلقاها عصر ، رواية شفوية ، أن يردّها لى ما يرى أنه الأصل ، لتجرى على قواعد اللغة ، مادام المعنى لا يختلف ، فإذا روى سيبويه بيت امرئ القيس :

فاليوم أشربْ غيرَ مستحقب إثـمًا مـن الله ولا واغـل

مستشهداً به على تسكين الفعل المضارع المرفوع للضرورة ، اعترض المبرّد على سيبويه وردَّ روايته للبيت ، وأوردد « فاليوم أسقى » بدل « فاليوم أشربْ » ، وهى تؤدى المعنى ، ولا تصطدم مع قواعد اللغة ، وفى مكان آخر قال إنها « فاليوم فاشْربْ » ، فهى فعل أمر سُكّن اطرداً ، وليست فعلا مضارعًا جُزِم ضرورة . وفيما يبدو كان التغيير من صُنع المبرّد ، وأن الرواية جاءتْ كما ذكرها سيبويه لأن علىَّ بن حمزة فى « التنبيهات » يقول : « لم يقل امرؤ القيس إلاّ « فاليوم أشربُ » وما رواه المبرّد من تغييره ، وبه اشتهر . وناقش أبو الفتح بن جنى فى كتابه « المحتسب » رأى المبرّد : و « أمَّا اعتراض أبى العباس هنا على الكتاب – أى كتاب سيبويه – فإنما هو على العرب لا على صاحب الكتاب ، لأنه حكاه كما

سمع ، ولا يمكن فى الوزن أيضًا غيرهُ ، وقول أبى العباس : إنما الرواية « فاليوم فاشربْ » فكأنه قال لسيبويه : كذبْتَ على العرب ، ولم تسمع ما حَكَيته ، وإذا بلغ الأمر هذا الحدّ من السرف فقد سقطتْ كُلفة القول معه » : وخلال القضايا النحوية تعرض المبرد للقراءات القرآنية ، وأبدى رأيه فيها ، ترجيحاً أو تهوينًا ، وضعفّ بعضها حتى ولو كان من القراءات السبع المشهورة .

وكتاب الكامل كمحاضرات يدرسها الطلاب بلغ الغاية فى بابه ، لأن تعليم النحو واللغة عن طريق الأدب ، من خلال النصوص الجيدّة ، أفضل ما يشير به مربّ عارف ، ويجارى أحدث النظريات التربوية ، ولكبار المتخصصين منهم على نحو أدق . لكن عصر الاحتضار ترك آثاره فى تفكيرنا ، برغم يقظتنا المعاصرة ، فظلت الكليات المتخصصة تعلم النحو فى كتب ذات قواعد مجردة ، وأمثلة مفتعلة ، وشواهد لا تتغير ، بهُت جمالها لكثرة ما دار حولها من نقاش ، ودراسة كتاب مثله يمكن أن تحقق أكثر من هدف فى وقت واحد ، تعلم النحو ، وتربى الذوق ، وتربط النظرية بالتطبيق .

لم تقتصر تعليقات المبرد على النحو واللغة ، وإن كانت مناط اهتمامه الأوّل ، فتعرض لعدد من مسائل البلاغة ، دون أن تأخذ شكل قاعدة علمية محدّدة ، فتكلم عن الكناية وأقسامها ، والمجاز وأنواعه ، والاستعارة وألوانها ، والالتفات والتجريد ، وأطنب القول فى التشبيه ، وعقد له باباً خاصًا ، وبيَّن أن « العرب تشبِّه على أربعة أضرب ، فتشبيه مفرط وتشبيه مصيب وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ، ولا يقوم بنفسه ، وهو أخشن الكلام » وأعطى لكل ذلك أمثلة من جيد الشعر ، وخصّ الإيجاز ، ويسميه الاختصار ، ويقيده بالمُفْهِم ، والاطناب ويصفه بالمُفَخَّم ، بباب آخر أورد فيه ألوانًا « من ألفاظ العرب البينة ، القريبة ، المفهمة ، الحسنة الوصف ، الجميلة الرصف » .

لكن حظَّ النقد من كتابه محدود ، فهو يروى الشعر ، يفسّر لغوياته ، ويعرب كلماته ، يحلل جمله ، ولكنه لا يتعرض لمناحى الجمال فيه ، وإن أبدى رأيه ففى إيجاز لا يتعدى تقديم البيت أو القصيدة بقوله : « ومما يستحسن لفظه ويستغرب معناه ، ويحمد اختصاره » ، أو « ومما يستحسن ويستجاد » أو « وهذا فى باب المدح حسن ومتجاوز ومبتدع لم يُسْبق إليه » أو « لم تجد الرواة ، ولا من يفهم

جواهر الكلام ، له مذهبًا حسنًا » أما تعليل ذلك وتفصيله وردّه إلى أسبابه فلا يعرض له ، ويتعرّض أحياناً قليلة للسرقات الأدبية ، دون أن يعطيها هذا الاسم ، يورد البيت من الشعر ثم يشير إلى من تناول المعنى نفسه ، ومن أجاد منهم أو تخلف ، ومن ابتدع المعنى أو نقله عمن سبقوه ، وهو فى ذلك يقابل بين الشعر والنثر على السواء .

وعقد **للشعراء المولّدين** بابًا صدرّه بقوله : « هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين حكيمة مستحسنة ، يحتاج إليها للتمثّل لأنها أشكل بالدهر ، وستعار من ألفاظها فى المخاطبات والخطب والكتب » . وعنى بالمولّدين معاصريه من الشعراء العباسيين ، فأورد أشعاراً لطائفة منهم ، بعضهم معروف مرموق مثل بشار بن برد ، وأبى العتاهية ، والحسن بن هانئ (أبو نُواس) ويسميه الحكمى . نسبة إلى حكم قبيلة من مَذْحِج ، وصالح بن عبد القدوس ، ودعبل الخزاعى . وبعضهم معروف لدارسى الأدب المتخصصين فحسب ، مثل : أشجع السّلَمىّ ، وعبد الصمد بن المعذّل ، أو معروف وشُهِرَ بغير الشعر ، كالخليل بن حمد واضع علم العروض . وفى آخر الكتاب عقد لهم بابًا آخر جعل عنوانه : « هذا باب طريف من أشعار المحدثين » أورد فيه شعراً لمطيع بن إياس ، وأبى عبد الرحمن العينى ، ويزيد المهلّبىّ ، ولم يضمن كتابه شيئًا من شعر البحترى ، على ما كان بين الرجلين من ألفة وود .

ومن **لوازم المبرّد فى الشرح** أن يتبع قوله بكلمة « يا فتى » مما يوحى بأن الكتاب فى الأصل أمالى ألقاها على طلابه ، وأن يُقّيد وعوده بالمشيئة ، حتى أن بعض العناوين جاءت مقرونة بها : « باب الحروف التى تكون استفهامًا وخبراً ، وسنذكرها مفسَّرة فى أبوابها إن شاء الله » .

وقريباً من آخر الكتاب أحس أن قارئه يستشرف النهاية متعباً . مع رحلة طالت ، بين جدّ القول ، ورائع الشعر ، بين بديع النثر ، وعويص النحو ، فاستأنى به شيئاً ، وأنشأ له بابًا ذكر فيه « من كل شىء شيئاً ، لتكون فيه استراحة للقارئ ، وانتقال ينفى الملل لحسن موقع الاستطراف ، ونخلط ما فيه من الجدّ بشىء يسير من الهزل ، ليستريح القلب ، وتسكن إليه النفس » . وهو باب لم يخرج فيه أبو العباس عن منهاجه ، وكل ما هناك أنّه اختار مادته التى يدور حولها

الحديث ، من موضوع محبّب إلى قلوب الناس فى عصره وما بعد عصره ، فكان عن العشق والهوى والصبّابة ، والنساء والوصل والهجر ، لكنه لم يتخففّ من وقاره ، فكان جادًّا لم يضمّن المادة كلمة خارجة ، أو تعبيراً مكشوفاً ، أو فكرة جارحة .

* * *

لقى « الكامل » تقديراً كبيراً من العلماء ، واحتذاه بعضهم فى تآليفه ، فألف **إبراهيم بن مَاهَوَيْه الفارسى** كتابًا عارض به المبرّد فى « كامله » ، وألّف **محمد بن جعفر** ، أبو الفتح المراغى ، المتوفى عام ٣٧١ هـ = ٩٨١ م كتاباً أسماه « لبهجة على نمط الكامل » . واهتم آخرون بتتبع سقطاته وأغاليطه ، فألف أبو القاسم على بن حمزة البصرى ، المتوفى عام ٣٧٥ هـ = ٩٨٥ م ، كتابه « التنبيهات على أغاليط الرواة » نبّه فيه على الأخطاء الواردة فى عدد من مؤلفات علماء عصره ، من بينها كتاب « النبات » لأبى حنيفة الدينورى ، و « الفصيح » لثعلب و « التنبيهات على ما فى المقصور والممدود » لأبى العباس بن ولّاد و « الكامل » للمبرّد ، وكتب أخرى . وقد أخذ على المبرّد ما عدَّه أخطاء فى تفسير عدد من الكلمات ، وفى رواية أبيات من الشعر ونسبته لقائله أو شرحه ، وأغاليط تصل بالنحو والتاريخ ، وختم تنبيهاته عن الكامل بقوله : « هذا آخر ما أخذناه على أبى العبَّاس مما لا عذر فيه ، وقد سامحناه فى كثير من الأغلاط . وقد أخذ الناس على أبى العباس قبلنا فى هذا الكتاب وفى غيره ، فمنهم مخطئ ومصيب ، فمن أخذ عليه فى هذا فأصاب أبو جعفر بن النحاس ، وممن أخذ عليه فأصاب أخطأ الأخفش »[1] .

وصادف « الكامل » هوى فى نفوس الأندلسيين بخاصة ، فأقبلوا على درسه ، وعنوا بشرحه . وبينهم من كان يستظهره . وحفظ المؤرخون أسماء عدد منهم ، مثل : **خلف بن يوسف بن فرتون** ، المتوّفى سنة ٥٣٢ هـ = ٩٦٣ م ، **وإشراقة السوداء العروضية** ، مولاة أبى المطرف عبد الله **بن غلبون** ، المتوفّاة سنة ٤٥٠ = ١٠٥٨ م وآخرين كثيرين .

---

(١) « التنبيهات على أغاليط الرواة » لأبى القاسم على بن حمزة ، مخطوطة فى دار الكتب المصرية ، وهى ناقصة ، وبها خروم ، وتوجد تحت رقم ٥٠٢ لغة .

وشرحه منهم القاضى أبو الوليد هشام بن أحمد **الوقَّشىّ**[١] من أهل طليطلة ، (ولد سنة ٤٠٨ هـ - ١٠١٧ م وتوفى فى مدينة دانية فى ٢٩ جمادى الآخرة سنة ٤٨٩ هـ = ١٠٩٦ م) ، وكان - كما يقول ابن بشكوال - « ضليعًا فى النحو واللغة ، ومعانى الأشعار ، وعلم العروض ، وصناعة البلاغة ، وكان شاعراً متقدّمًا ، حافظًا للسنن ، وأسماء نقلة الأخبار ، بصيراً بأصول الاعتقادات وأصول الفقه ، نافذاً فى علم الشروط والفرائض ، متحققا بعلم الحساب والهندسة ، مشرفًا على جميع آراء الحكماء ، حسن النقد للمذاهب » وتسمَّى شرحه « نُكت الكامل » ، ولم يصلنا هذا الكتاب ، لكن جلال الدين السيوطى ، من علماء القرن العاشر الهجرى ، الخامس عشر الميلادى ، أشار إليه فى كتابه « بغية الوعاة » ، وتردَّد ذكره فى كتاب « خزانة الأدب » لعبد القادر البغدادى ، المتوفى ١٠٩٣ هـ = ١٦٨٢ م .

وشرحه **ابن السيِّد البَطْلَيوسى** ، عبد الله بن محمد ، من بطليوس Badajos المتوفى عام ٥٢١ = ١١٢٧ م و « كان عالمًا بالآداب واللغات متبحراً فيها ، مُقدّما فى معرفتها وإتقانها ، يجتمع الناس إليه ، ويقرءون عليه ، ويقتبسون منه . وكان حسن التعليم ، جيّد التلقين ، ثقة ضابطاً ، وألف كتباً حساناً[٢] » من بينها شرح « سقط الزند » للمعرى ، وشرح ديوان المتنبى ، ولم أجد فيما بين يدىّ من مراجع أندلسية إشارة إلى شرحه « للكامل » ، ولكن **عبد القادر البغدادى** ذكره أكثر من مرَّة فى كتابه « شرح شواهد الشافية » ، ولم يذكر عنوان الكتاب ، واكتفى بقوله فيها جميعاً : « قال ابن السيِّد فيما كتبه عن الكامل » .

والأخير من هذه الشروح الأندلسية صنعه **محمد بن يوسف بن مرونَجوش السرقسطى** ، المتوفى عام ٥٣٩ هـ - ١١٤٤ م ، ولم يذكره أحد من الأندلسيين ، ممن قرأت لهم ، ولكن حاجى خليفة المتوفى فى عام ١٠٦٦ هـ = ١٦٥٦ م ، أشار إلى هذا الشرح فى موسوعته : « كشف الظنون من أسامى الكتب والفنون » .

وشرحه فى عصرنا الحديث **سيد على المرصفى** ، ألقى شرحه دروسا فى

---

(١) نسبة إلى بلدة وقش فى الأندلس ، وما تزال موجودة فى إسبانيا واسمها Huccas.

(٢) ابن بشكوال ، تكملة الصلة ، ترجمة رقم ٦٣٩ .

الأزهر ، في مطلع هذا القرن ، عندما اصطفاه **الإمام محمد عبده** للتدريس فيه ، ثم نشر شروحه في كتاب أسماه : « رغبة الآمل من كتاب الكامل » ، جاء في ثمانية أجزاء ، وطبع للمرة الأولى خلال أعوام ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧ م و ١٣٤٨ = ١٩٣٠ م ، ولم يطبع بعد ذلك مرة أخرى ، وقد وجد أن « أبا العباس كثيراً ما يعتمد في لفظه على جودة حفظه ، فربما نزع في غير قوسه ، فزاغ عن القصد سهمه ، أو صعد في الأدب مرتقى زلت به إلى الحضيض قدمه » ، « فأبان ما حاد فيه المبرد عن سنن الصواب من خطأ في الرواية » أو اللغة أو التاريخ . وإذا ذكر أبو العباس شاهداً من شعر العرب ، أورد المرصفي « القصيدة كاملة ، مع ضبط كلماتها وبيان مبهماتها » .

وفي نهاية القرن السابع الهجري أحس أمير مغربي هو **أبو زكريا بن أبي محمد بن أبي جعفر** ، بما في مادة الكتاب من فوضى ، فعهد إلى علماء مغاربة ، أو عالم ، لا نعرف أسماءهم ، بترتيب مادة الكتاب وتحريره وتهذيبه ، فجعلوه في أربعين باباً . وبعض الأبواب اشتمل على فصول متعددة تبلغ العشرين ، وبعضها لا فصول تحتها . فمثلا الباب الأول في التفسير ، والثاني في الحديث ، والثالث في المواعظ والزهد ، والرابع في الخطب ، والخامس في الرسائل والتوقيعات والوجوه ، والسادس في الحكم ، والسابع في الأمثال ، والثامن في البلاغة ، وفيه ثلاثة فصول : وصف البلاغة ، ونقد الشعر وما في معناه ، وفي تمرين اللسان ، والتاسع في التشبيهات والأوصاف وفيه ثلاثة عشر فصلا : ما وقع في القرآن ، وفي تقسيمها ، وفي طول الليل والسهر والنجوم ، وفي السحاب والأمطار والمياه والرياض والمجالس والرسوم والأطعمة ، وفي الخيل والإبل وجملة من الحيوان ، وفي الجيوش والسلاح والآلات وما قاربها ، وفي المصلوب والمطعون ، وفي الصيد والوحش والهوام ، وفي الغزل وما يتعلق به ، وفي ذكر الهمم والرءوس ، وفي الخمر وآنيتها ، وفي الأمداح ، وفي الهجاء . إلى آخر ما هناك من تقسيمات ليس القصد أن نلّم بها كلها ، وإنما أن نعطي صورة لها . وفُرِغ من نسخة وتحريره في أواخر شهر محرم سنة ٦٤٦ هـ ، وسُمِّيَ « بغية الآمل في ترتيب الكامل » ، وهو كتاب لمّا يطبع ، ولدينا منه مخطوطتان كاملتان سليمتان محفوظتان في خزانة القصر الملكي بالرباط ، أولاهما تحت رقم ٢٤٨٦ والأخرى تحت رقم ٥١٦٣ .

طُبع الكامل لأول مرة فى أوربا ، نشرته الجمعية الألمانية فى ليبزج Leipzig عام ١٨٦٤ م ، وصدر فى ثلاثة مجلدات ، بإشراف المستشرق رايت W. Wright (١٨٣٠ - ١٨٨٩ م) ، وضمّن الكتاب ملاحظاته وتعليقاته ، وألحق به فهارس منوّعة .

ثم طبع فى الآستانة ، فى مجلد واحد ، بلغت صفحاته ٧١٦ صفحة ١٢٧٦ هـ = ١٨٦٩ م ونشرته المطبعة الخيرية فى مجلدين عام ١٣٠٨ = ١٨٩٠ م ، ونشرته مطبعة التقدم فى مجلدين أيضًا ، وبهامشه كتاب « الفصول المختارة » للجاحظ ، ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥ م ، وتوالى بعد ذلك طبعه على نحو تجارى ، ثم ظهر فى طبعة علمية محقّقة ، قام على ضبط نصها الأستاذان **محمد أبو الفضل إبراهيم** ، **والسيد شحاته** ، ونشرت فى أربعة مجدات عام ١٩٥٦ .

وهذه الطبعات مأخوذة كلها عن المخطوطة الوحيدة التى أشرنا إليها من قبل ، وتتمايز فيما بينها بمدى ثقافة وعلم القائمين على التحقيق ، وقدرتهم على خدمة النصّ ، ومن ثمّ كانت طبعة الأستاذ محمد أبى الفضل إبراهيم وصاحبه أضبط نصًّا ، والطبعة الألمانية أكثر تعليقًا ، وشرح المرصفى أجلّ فائدة . وقد قام الأستاذ السباعى بيومى بتهذيب الكامل ، ونشره فى مجلدين عام ١٣٤١ هـ - ١٩٢٣ م .

○ منتخبات من كتاب « الكامل » :

باب من أخبار الخوارج[1]

قال أبو العباس : ذكر أهل العلم من الصُّفْرِية أن الخوارج لما عزموا على البيعة لعبيد الله بن وهب الراسِبىّ من الأزْد تكرَّه ذلك فأبوْا من سواه ، لم يريدوا غيره ، فلما رأى ذلك منهم قال : يا قوم استبيتوا الرأىَ . أىْ دعوه يُغِبّ ، وكان يقول : نعوذ بالله من الرأى الدبرىّ . قوله استبيتوا الرأى يقول : دعَوا رأيكم تأت عليه ليلة ثم تعقّبوه ، يقال : بيَّت فلان كذا وكذا إذا فعله ليلا . وفى القرآن

---

(١) العنوان : من عمل المبرد نفسه .

﴿ إذ يُبيِّتون ما لا يرضى من القول ﴾ ، أى أداروا ذلك ليلا بينهم ، وأنشد أبو عبيدة :

أتوْنى فلم أرضَ ما بيَّتوا وكانوا أتوْنى بأمرٍ نُكُرْ
لأنكحَ أيمهم مُنْذِراً وهل يُنْكِح العبدَ حُرٌّ لحرّ

والرأى الدبرىّ الذى يعرض من بعد وقوع الشىء كما قال جرير :

ولا يعرفون الشرَّ حتى يُصِيبَهم ولا يعرِفُون الأمرَ إلا تدبُّرا

وكان عبد الله بن وهب ذا رأى وفهم ولسان وشجاعة ، وإنما لجأوا إليه وخلعوا مَعْدان الإباضى ، لقول معْدان :

سلامٌ على مَن بايع الله شاريًا وليس على الحزب المقيم سلامُ

فبرئت منه الصُّفْريّة ، وقالوا : خالفت لأنك برئتْ من القعَد .

قال أبو العباس : والخوارج فى جميع أصنافها تبرأ من الكاذب ، ومن ذى الظاهرة .

لو[1]

فلو أصلها فى الكلام أن تدلّ على وقوع الشىء لوقوع غيره ، تقول : لو جئتنى لأعطيتك ، ولو كان زيد هناك لضربته . ثم تتسع فتصير فى معنى « إنْ » الواقعة للجزاء ، تقول : أنت لا تكرمنى ولو أكرمتك . تريد وإنْ أكرمتك ، قال الله عزّ وجلّ : ﴿ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ فإنّ تأويله عند أهل اللغة لا يُقبل به أن يتبرّأ وهو مقيم على الكفر ، ولا يُقبل إن افتدى به ، « فلو » فى معنى « إنْ » . وإنما منع « لو » أن تكون من حروف المجازاة فتجزم كما تجزم إنْ أنّ حروف المجازاة إنما تقع لما لم يقع ، ويصير الماضى معها فى معنى المستقبل . تقول : إنْ جئتنى أعطيتك ، وإن قعدتَ عنى زُرتكَ . فهذا لم يقع ، وإن كان لفظه لفظ الماضى لما أحدثته فيه « إنْ » ، وكذا متى أتيتنى أتيتك . و« لو » تقع فى معنى الماضى ، تقول : لو جئتنى أمس لصادفتنى ،

---

(١) العنوان : من عمل مؤلف هذا الكتاب .

ولو ركبتَ إليَّ أمس لألفيتني ، فلذلك خرجتْ من حروف الجزاء ، فإذا أُدْخِلَتْ عليها « لا » صار معناها أنَّ الفعل يمتنع لوجود غيره ، فهذا خلاف ذلك المعنى ، ولا تقع إلا على الأسماء ، ويقع الخبر محذوفاً ، لأنه لا يقع فيها الاسم لا وخبره مدلول عليه ، فاستُغنِيَ عن ذكره لذلك ، تقول : لولا عبد الله لضربتك ، والمعنى فى هذا المكان من قرابتك أو صداقتك ، أو نحو ذلك ، فهذا معناها فى هذا الموضع .

ولها موضع آخر تكون فيه على غير هذا المعنى ، وهى « لولا » التى تقع فى معنى « هلا » التى للتحضيض ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ أى هلاَّ . وقال الله تعالى : ﴿ لولا ينهاهم الرَّبانيون والأحبار عن قولهم الإثم ﴾ فهذه لا يليها إلاّ الفعل ، لانها للأمر والتحضيض ، مُظهرا أو مضمراً ، كما قال (نُسِب لجرير وقيل للأشهب بن رُميلة) :

تعدُّون عقْرَ النّيبِ أفضلَ مجدِكم بنى ضَوْطرَى لولا الكِمىَّ المقنّعا

أى هلاّ تعدّون الكمى المقنّعا . و « لولا » الأولى لا يليها إلا الاسم على ما ذكرتُ لك ، ولابد فى جوابها من اللام أو معنى اللام ، تقول : لولا زيدٌ فعلتُ ، والمعنى لفعلتُ ، وزعم سيبويه أن زيداً من حديث لولا ، واللام والفعل حديث معلق بحديث لولا ، وتأويله أنَّه للشرط الذى وجب من أجلها ، وامتنع لحال الاسم بعدها .

و « لو » بغير « لا » لا يليها إلا الفعلُ مضمراً أو مظهراً ، لأنها تشارك حروف الجزاء فى ابتداء الفعل وجوابه ، تقول : لو جئتنى لأعطيتك ، فهذا ظهور الفعل . وإضماره قوله عزّ وجلّ : ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى ﴾ والمعنى ، والله أعلم ، لو تملكون أنتم . فهذا الذى رفع أنتم ، ولمَّا أُضْمِرَ ظهر بعده ما يفسره . ومثل ذلك : لو ذاتُ سوارٍ لطمتنى ، أراد : لو لطمتْنى ذات سِوار ، ومثله قول المغلس :

ولو غيرُ أخوالى أرادوا نقيصتى جعلتُ لهم فوق العرانين مِيسما

وكذلك قول جرير :

لو غيرَكم عَلقَ الزبيرُ بحبله أدَّى الجوارَ إلى بنى العوّامِ

فنصب بفعل مضمر يُفسره ما بعده لأنَّه للفعل وهو فى التمثيل : لو عَلِقَ الزبيرُ غيرَكم ، وكذلك كل شيء للفعل ، نحو الاستفهام ، والأمر والنهى وحروف الفعل نحو إذْ وسوْف . (كذا وقع هنا إذ وسوف ، ولم يذكر سيبويه مع سوف إلّا قد ، وهو الصحيح)[1] ، وهذا مشروح فى الكتاب المقتضب على حقيقة الشرح .

بـــاب[2]

قال أبو العباس : قال رجل من بنى أسد بن خُزيمة ، يمدح يحيى بن حيان ، أخا النَّخَع بن عمرو بن عُلَة بن جَلْد بن مَذْحِج ، وهو مالك :

ألَا جعلَ الله اليمانينَ كلّهم فِدًى لفَتَى الفتيان يحيى بن حَيَّان
ولولا عريقٌ فىَّ من عصبيةٍ لقلتُ وألْفًا من مَعَدّ بن عَدْنانِ
ولكن نفسى لم تطبْ بعشيرتى وطابت له نفسى بأبناء قحطان قحطان

وهذا من التعصّب المفرْط . وحدثنى شيخٌ من الأزْد ثقة ، عن رجل منهم ، أنه كان يطوف بالبيت ، وهو يدعو لأبيه ، فقيل له : ألا تدعو لأمك ، فقال : إنها تميمية . وسمِعَ رجل يطوف بالبيت وهو يدعو لأمه ولا يذكر أباه ، فعوتب ، فقال : هى ضعيفة ، وأبى رجل يحتال لنفسه . وحدثنى المازنى عمن حدثه قال : رأيتُ رجلا يطوف بالبيت ، وأمه على عنقه ، وهو يقول :

أحمِلُ أُمِّى وهِىَ الحمَّالهْ تُرْضِعُنى الدِّرَّةَ والعُلالهْ
ولا يُجازَى والدٌ فَعَالهْ

قوله الدِّرة ، فهو اسم ما يُدِرُّ من ثدييها ، ابتداء كان أو غير ذلك ، والعُلَالة لا تكون إلا بعدُ . يقال علَّهُ يَعُلُّه ويَعِلُّه والاسم العُلالة . وكل شيء كان على فعَلت من المدغم فمضارعُه إذا كان متعديًا إلى مفعول يكون على يفعُل نحو ردَّه يردُّه ، وشجّه يشجُّه ، وفرَّه يَفُرُّه ، فإذا قلت فَرَّ يفِرُّ فإنما ذلك لأنه غير متعد إلى مفعول ، ولكن تقول فرزت الداية أفُرُّها ، وجاء فعِل يفعِل من المتعدّى فى ثلاثة أحرف ، يقال : علَّهُ يَعُله ويَعِله ، وهرَّهُ يَهُره ويَهِرُّه ، إذا كرهه .. » .

---

(١) اضح أن ما بين القوسين هو تعليق من الأخفش الصغير راوية الكتاب .

(٢) العنوان : من عمل المبرد نفسه .